مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 01 السنة 2021 ص 240 - 258

تاريخ الإرسال: 2020/01/19 تاريخ القبول: 2020/10/25
تاريخ النشر: 2021/01/30

تجليات النضال الثوري للمرأة الجزائرية المثقّفة في رواية من يوميات مُدرّسة حرّة لزهور ونيسي

Manifestations of the revolutionary struggle of educated Algerian women in a novel from the diary of a free teacher of Zhor Ounissi

د. مليكة حيمر
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1/ الجزائر malika.haimer@umc.edu.dz

الملخص:

يعدّ الأدب النسوي الجزائري أدبا مُلتزما بقضايا المرأة والمجتمع، بل أكثر تركيزا على عنصر المرأة، وحريصا على تجسيد معاناتها الخاصّة كأنثى، والعامّة كإنسانة تسعى لتأكيد هويتها، ورفع الحيف والجور عنها، نظرًا لما عايشته من ظروف قهر، وتخلّف خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

فظهرت الأديبة الجزائرية زهور ونيسي صوتا نسائيا مُناضلا في صفوف جبهة التحرير الوطني، تتحمّل أعباء وطنها ومسؤولياتها كمواطنة ومسؤولة قضية من خلال سلاح الكلمة الذي ناضلت به وأسمعت كلماتها من به صمم. وعلى هذا الأساس يهدف المقال إلى الكشف عن صُور النضال الثوري للمرأة المثقفة الجزائرية في متن المدونة الروائية الموسومة بـ "من يوميات مُدرّسة حرّة" لزهور ونيسي التي ركّزت من خلالها على دور المرأة المثقّفة في النضال الثوري، والعمل الفدائي فترة الحرب التحريرية.

الكلمات المفتاحية: المرأة المثقّفة، النضال الثوري، الرواية النسوية، من يوميات مدرّسة حرّة، زهور ونيسي

Abstract:

Algerian feminist literature committed to women's and society's issues, and is keen to embody its own suffering as a female, and as a human being seeking to assert her identity, and to lift injustice, due to the circumstances of oppression and backwardness during the french occupation of Algeria.

Algerian writer Zhor Ounissi have emerged as a struggling female voice in the FLN, shouldering the burdens of her homeland and her responsibilities as a citizen and responsible for a cause through the weapon of the word she has struggled with. On this basis, the article aims to reveal the images of the revolutionary struggle of Algerian intellectual women in the board of the novel blog marked "from the diary of a free teacher", in which she focused on the role of educated women in the revolutionary struggle in the liberation war.

Keywords: Educated Women ; revolutionary struggle; Feminist Novel; Diary of a of a free teacher; Zhor Ounissi.

د. مليكة حيمر، الإيميل: MALIKA.HAIMER@YAHOO.COM

مقدمة:

يجد الدّارس للأدب النسوي أنّ المرأة الجزائرية لم تتخلّف عن ركب الكتابة الإبداعية، فسجّلت حضورها في السّاحة الأدبية والنقدية، وأثبتت جدارتها في الإبداع والفنّ داخل الجزائر وخارجها، حيث تمكّنت من قلم الكتابة الأدبية بمختلف أجناسها (الرواية، القصّة، الشّعر، المسرح، المقال...) لتكتب بلغة راقية وأسلوب جمالي متميّز، ولتعالج المواضيع الحسّاسة والمتنوّعة بهدف إثبات ذاتها كذات فعّالة ومُنتجة من أجل مواجهة سلطة الكتابة الذكورية.

عبّرت الرّواية الجزائرية أحسن تعبير عن الثورة وملامحها التي كشفت مآسي وآلام الشّعب الجزائري، وأرّخت للأحداث الثورية منذ 1830م إلى غاية 1962م، حيث كانت ثورة نوفمبر 1954م شاهدا على أنّ المرأة الجزائرية دافعت عن كرامة بلادها في أتون النضال، وخاضت حرب التحرير أُمّا وزوجة وفدائيّة، وعرفت كلّ أنواع التعذيب، كما عرفت الاستشهاد، فأثبتت وجود شخصيتها، ولا يخفى على أحد هذا الدّور الفعّال، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو هل كان للصوت النسائي دور في خدمة الكلمة؟ نجيب، فنقول: إنّ الصّوت النسائي كان خافتا وذلك بسبب الظروف الاجتماعية في ظِلّ الاستدمار الفرنسي، حيث ظهرت المرأة المناضلة إلى جانب الرجل للدفاع عن الوطن، بل إنّ المرأة الجزائرية أبدت وعيّا كبيرا بقضية وطنها، فنقلت عبر سلاح القلم وقائع الثورة الجزائرية بكلّ ما حملته من ألم وعذاب خصّ الشّعب الجزائري ككلّ.

وقد نشطت المرأة الجزائرية وبخاصة المثقفة منها في مجال الكتابة الأدبية خاصّة بعد الاستقلال لتنقل واقع الجزائر المزري وما عايشه أبناؤها من ظلم وقهر واستبداد إبان فترة الاستدمار الفرنسي الغاشم، فكانت المرأة، بحقّ، أديبة، ومناضلة، وأمّا، ومعلّمة، وممرضة...، فحملت مشعل الدفاع عن وطنها بسلاح البندقية وسلاح القلم، ومن بين الأدبيات المناضلات اللاّئي ناضلن ودافعن عن وطنهنّ، المناضلة، والأديبة، والكاتبة الجزائرية زهور ونيسي[1] التي حملت مشعل النضال والكفاح أيام الثورة التحريرية، فحاربت المستدمر الفرنسي بسلاح الكلمة، فأبدت نضالها قبل أن تعرف سرّ الإبداع الأدبي، فكانت تتحمّل أعباء وطنها ومسؤولياتها كمواطنة ومسؤولة قضية من خلال سلاح الكلمة الذي ناضلت به وأسمعت كلماتها من به صمم. وخاصّة أنّها اتّخذت من اللغة العربية سلاحا في وقت أحوج ما تكون الجزائر إلى كلمة عربية، ولهذا نقول: إنّها حملت أكثر من سلاح في أتون الثورة [2] . فظهرت

روايتها "من يوميات مُدرّسة حرّة" لتقدّم من خلالها حدثًا يبلور صورًا من النضال في حرب التحرير، وركّزت على مشاركة المرأة المثقّفة (المعلّمة) في الثورة ومقاومة الاستدمار الفرنسي إلى جانب أخيها الرجل. واستنادا إلى هذا الطرح تقوم إشكالية الدراسة على الأسئلة الآتية:

–ماهي صور النضال الثوري للمرأة الجزائرية المثقّفة في رواية من يوميات مدرّسة حُرّة؟

– إلى أيّ مدى استطاعت زهور ونيسي في روايتها أن تُعبّر عن مُعاناة المرأة واضطهادها داخل المجتمع الجزائري المستعمر؟

وقبل الغوص في حيثيات هذا الموضوع لا بدّ أوّلا من التسلح ببعض الأطر النظرية التي تضبط ماهية الموضوع. ومنها:

أوّلا– الرواية النسوية الجزائرية:

يجد المتتبّع للحركة الأدبية والثقافية زمن الثورة غياب المرأة سواء في" الحركة الثقافية أوفي أي نشاط سياسي" [3]. " فقد كانت المرأة الجزائرية تعيش في وضع اجتماعي مغلق محاصرة بالتقاليد والجهل والتهميش "[4] . وبما أنّ المرأة الجزائرية فرد من المجتمع العربي، فإنّها لم تكن " بمنأى عمّا يجري في السّاحة العربية عموما، فتأثّرت هي الأخرى بتلك التحوّلات الفكرية والاجتماعية المثقلة بالهزائم والانتكاسات التي شهدتها الساحة العربية، خاصّة بعد هزيمة 1967م"[5].

أمام هاته التحوّلات الاجتماعية والثقافية التي عرفتها الجزائر أضحت القصيدة عاجزة على استيعاب هذا الوضع، فكانت الرواية وحدها قادرة على التعبير عن آمال المواطن وآلامه، واستجابت الرواية النسوية الجزائرية، وانبثقت روايات عديدة، منها ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، ورواية تاء الخجل لفضيلة الفاروق و..." [6].

عانت المرأة كثيرا في فترة الاحتلال مع قساوة المجتمع الجزائري بسبب الجهل وتتبع العادات والتقاليد التي تظلمها وتسلب حقوقها وتنقصها من شخصيتها ، ومع ذلك كانت تناضل وتكافح ضد المستعمر هذا من جهة، ومن جهة أخرى تثبت وجودها وتحقّق أهدافها وطموحاتها. " فالحرب كانت بالنسبة للمرأة الجزائرية فرصة للتعبير عن الذات وإثبات قوتها للمستعمر وحتى للرجل، فارتفعت لأوّل مرة مكانة المرأة وحكيت بطولتها الحكايات والقصص وحتى الروايات" [7]، فأضحت المرأة بعد الاستقلال ذات أهمية كبرى، حيث أثمر المخاض فيما بعد ظهور حركة ثقافية متواضعة باللغة العربية ، بدأت مع " زهور ونيسي " سنة 1954 على صفحات البصائر العربية، فهي القائلة: " أستطيع أن أزعم أنني عشت حرب التحرير على أعصابي . . . خلالها وبعدها أيضا . " واستمرت بعد ذلك مع مجموعة من الأديبات من أمثال " : زليخة السعودي " ، و"جميلة زنير " ، و "خيرة بغدود . . . " وقد كانت المرجعية المشتركة في موضوع هذه الكاتبات هي الثورة التحريرية ومعالجة الواقع الجزائري المعاش آنذاك"[8].

كانت البداية الفعلية للرواية النسوية في الجزائر في التسعينيات من القرن العشرين، حيث اتّجهت المرأة الجزائرية إلى كتابة الرّواية والإبداع فيها، فالرّواية هي الصدر الأرحب والمتسع العميق لآهات المرأة الجزائرية، وهذا ما جاءت به الرّوائيّة فضيلة الفاروق، حيث اعتبرت أنّ " القصّة لم تعد تستوعب ألمها، وأنه أصبح يلزمها دفاتر ودفاتر لتملأها بما يؤلمها"[9]. وبالتالي فإنّ ظهور الرواية النسوية بالجزائر له أسبابه ومبرّراته، فلم تعدّ المرأة الجزائرية مهمّشة وخاضعة لسلطة الكتابة الذكورية، بل أظهرت براعتها هي الأخرى في السّاحتين الأدبية والنقدية.

ثانيا– دور المرأة في الثورة التحريرية عند زهور ونيسي:

فرضت المرأة الجزائرية نفسها وأثبتت جدارتها في المقاومة المسلحة والنضال قبل ذلك منذ وقع الاحتلال الفرنسي على أرض الجزائر في صائفة 1830م، فبرزت مناضلات كُثر، منهم: لالة فاطمة نسومر التي أثبتت وجودها وأظهرت مقاومتها للعدو الفرنسي، وغيرها كثيرات، فبات دور المرأة الجزائرية، كما تقول زهور ونيسي في مذكراتها المعنونة بـ: الزهور والأشواك ..مسار امرأة: "إنّ دور المرأة الجزائرية ومهامها تكاملت وتنامت مع الأيام، أيامَ وسنواتِ ثورةِ التحرير الكبرى، إنّها المرأة التي تُرابط في الشوارعِ والأرصفة، راصدةً تحركات العدو، وإنّها التي تفتح بيتها وتُهيّئُ عائلتها كلّهم لخدمة فوجٍ من الفدائيين فجأةً ولفترة مَا من الزمن كثيرا ما تطول، وإنّها التي حملتِ العتاد والألبسة والتقارير والمناشير ومختلف الوثائق السرية من مكانٍ إلى مكان، عابرةً الحواجز العسكريةَ والمعنوية، وإنّها التي تمَنْطقتْ على القنبلة متعرضةً لمختلف المضايقات والإهانات، وإنّها التي ضَفَرتِ الرصاصَ مع ضفائرِها، وإنّها التي تعمل كرابطِ اتصالٍ وتبليغٍ بين خلايا الثوّار في المدينة الكبيرة، وإنّها التي عندما ينكشف أمرُها للعدو، وعند القبض على أحد رفاقها وتعذيبه تشدّ الرحال إلى الأرياف تاركة وراءها الأهل والزوج والأولاد لتشارك في المعارك الكبرى بشكل مباشر فتُجْرحُ وتُسْتَشْهد، وإنّها التي تطبخ وتغسل وتغذّي وتحصل بمشقة على احتياجات أفواج المجاهدين، وإنّها التي دفعت بأسرتها جميعا في أتون المعركة وبكتهم بزغاريد الأناشيد الوطنية، وإنّها التي طُلِّقتْ و طُرِدتْ بسبب هذه الخيارات"[10]. ترى زهور ونيسي في المرأة بعامّة النور الذي يقود الضّال في الظلمات، تتحمّل أعباء الحياة بقساوتها ومرارتها في ظلّ تواجد العدوّ الفرنسي في أرضها، ولكنّها لم تستسلم للأمر، بل ناضلت، ورابطت، وجاهدت بالنفس والنفيس من أجل استرجاع حرية بلادها المسلوبة، فتكون بذلك قد افتكّت حقّا كان حكرا على الرّجال، وقد نالت به جدارةً كان المستدمر الفرنسي بالأمس لا يريدها حتى للرجال في الجزائر. وهذه

الصورة تعدّ أنموذجا لما قامت به المرأة الجزائرية من أدوارٍ نضاليةٍ مُشرِّفة أينما كانت في دفاعها المتعدّد الأشكال عن الوطن سنوات الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ثالثا– النضال الثوري للمرأة الجزائرية المثقّفة في رواية من يوميات مُدرّسة حرّة:

قبل الحديث عن النضال الثوري للمرأة الجزائرية المثقّفة في رواية من يوميات مدرّسة حرّة لا بدّ أوّلا من الإحاطة بمجريات أحداث الرواية ومضمونها.

تعدّ رواية من يوميات مُدرّسة حرّة لزهور ونيسي رواية ثورية جاءت بشكل مذكرات، مزجت فيها الكاتبة بين فَنيّ الرواية والسيرة الذاتية، تخلط فيها المذكرات بالسيرة الذاتية وبالرواية، فجاءت مجريات أحداثها، والقضايا التي عالجتها الكاتبة في روايتها تمسّ واقعها والمجتمع الجزائري إبان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، لذا جاء الزمن في هذه الرواية يبدأ " بالثورة الجزائرية المسلحة.. نوفمبر 1954 وينتهي بإضراب ديسمبر 1960"[11]. ولما كانت " البيئة والحدث في زمن نضال ثوري، فإنّ كُلاّ من العناصر الثلاثة، البيئة، والحدث، والزمن، تشكّل وحدة عضوية في الرؤية الروائية وهذه العناصر الثلاثة إلتقت في الثورة التحريرية، ولذا نقول إنّ الرواية واقعية ثورية...!"[12].

تقدّم زهور ونيسي في روايتها من يوميات مُدرِّسة حرّة حدثا يبلور صورًا من النضال في حرب التحرير، وركّزت على مشاركة المرأة في الثورة ومقاومة الاستدمار الفرنسي إلى جانب أخيها الرجل، ولم يقف الحدث عند معارك الفداء فحسب، وإنّـما " امتدّ ليشمل الصّراع بين الغزو الثقافي التبشيري، وبين المدارس العربيّة الحرّة، ثمّ التأكيد على الهويّة الوطنيّة للشخصيّة الجزائريّة "[13]. فكانت رواية ثورية جاءت بشكل مذكرات تحت عناوين عدّة سمّتها الكاتبة فصولا .

اعتمدت الكاتبة طريقة التجزئة في كتابتها هذه الرواية؛ لأنّها اعتمدت المذكّرات وربطت فيما بينها بالشخصيات المتنامية، وهي من بيئة واحدة، وهذا ما

ساعد زهور ونيسي على تبنّيها شخصيات حيوية لرؤيتها الفنية، فكلّ من العناصر الثلاثة؛ البيئة، والحدث، والزمن، تُشكّل وحدة عضوية في الرؤية الرّوائيّة، وهذه العناصر التقت في الثورة التحريرية، لذا نقول: إنّ الرّواية واقعيّة ثورية. تقول زهور ونيسي مؤكّدة واقعية روايتها هذه: " إنّ كلّ الوقائع التي وردت في هذه المذكّرات، مؤكّدة، إمّا لأنّي ساهمت فيها، وإمّا لأنّي عشتها حقيقة، أو شربت من كأسها المرة حقًّا... وهذه المذكّرات محاولة منّي لتقديم حقائق جدّية، وقد تكون هذه المحاولة غير مستكملة الجوانب، ولكنّها على أيّة حال، من المحاولات التي ندعو إلى السّعي وراءها، لنستكمل بها دراسة واجبة تقودنا إلى مستقبل مأمول. قاعدته ماضٍ صادق ونظيف، لاغشّ في تسجيله ولا إدّعاء... ولا تزييف" [14]. فزهور في روايتها، هذه، تأتي مرّة على التاريخ لتسجّل وقائعه، وتارة تميل إلى الفنّ، لتجمع بين المذكّرات كأسلوب، وبين الحوار كرؤية روائية.

استغلّت زهور ونيسي الثورة التحريرية لتقدّم صورة واضحة عن المساهمة الفعّالة للمرأة الجزائرية بعامّة، والمثقّفة منها بخاصّة في الكفاح المسلّح، من خلال تقديم نماذج نسائية عن المرأة الثورية المثقّفة ممثّلة في روح المعلمة التي جسّدتها من خلال ذاتها وزميلاتها، فنجدها تعكس الصّور النضالية، والبُعد الثوري لنضال المرأة الجزائرية التي أبدت في كثير من المواقف شجاعة وبطولة بشكل رائع يفتخر به المجتمع، فكثير من الحقائق التاريخية " تشهد بأنّ المرأة لعبت دورا نضاليا أثناء الثورات والانتفاضات الشّعبية ضد المستعمر منذ 1830 م، فقُدّر للمرأة أن تبرز في بعض الفترات من التاريخ رغم الكبت والحرمان" [15]. ذلك ما نجده في رواية "من يوميات مدرّسة حرّة" التي اتّخذ فيها حضور المرأة الجزائرية المثقفة شكلا واضحا من خلال المواقف التي أبدتها المعلمات وهنّ يؤدين عملهن التعليمي والنضالي في الوقت نفسه في سبيل استرجاع السيادة الوطنية للجزائر.

إنّ أحداث الرواية ومُجرياتها عاشتها شخصية الروائية (الساردة للأحداث) بدءا من دخولها المدرسة الحرّة، ومعايشتها الواقع النضالي، سرّا وجهرا، " سرّا عن طريق التنظيم في جبهة التحرير، وجهرا بالعمل الجدي والسلوك الذي يمثّل شخصية المناضل" [16]. وقد بدأت نضالها منذ دخولها إحدى المدارس الحرّة بالعاصمة ومزاولتها مهنة التعليم بصفتها مستخلفة لمعلمة تغيّبت بسبب الولادة، على الرغم من أنّها لم تكن مهيّأة لذلك، فالمرأة الجزائرية المثقّفة تتحدّى كلّ الصّعاب والظروف ولا تبخل بعلمها، فعلى الرغم من صغر سنّ الروائية (زهور ونيسي) وبداية عهدها بالتدريس إلاّ أنّها قبلت أن تكون مدرّسة مستخلفة؛ لأنّها ترى ذلك واجبا مقدّسا. تقول عند استلامها مهنة التدريس: "... قوّة بداخلي تدفعني لعدم الرّفض.. قوّة بداخلي تُشعرني أنّ ما سأقوم به هو الواجب... والواجب الذي لا هروب منه..." [17] . وبذلك تُعطي الدليل على قوة شخصيتها الوطنية، فالعلم سلاح لمن أراد الكفاح.

إنّ إحساس الروائية – باعتبارها من النخبة المثقّفة في المجتمع– بالمسؤولية اتّجاه أبناء وطنها وبناته دفعها إلى قبول مهنة التدريس على الرغم من عزوفها عنها بادئ الأمر نظرا لصغر سنّها، وعدم إتمام دراستها، فناضلت في سبيل تعليم أبناء وطنها، وإخراجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. تقول الروائية: " وأنا اليوم هل يُعتبر وضعي وأنا مدرّسة أبلغ من العمر سبعة عشر سنة نجاحا أم فشلا؟.. وعلى العموم سواء كان هذا نجاحا أو فشلا فلا اختيار لي فيه، وبالتالي لم يترك بنفسي لا سعادة النجاح، ولا مرارة الفشل" [18].

يبدو أنّ الكاتبة مُصرّة على النضال والكفاح بسلاح العلم والمعرفة الذي تقدّمه لأبناء وطنها وبناته لكي تسمو بأفكارهم ومعارفهم صوب النجاح، وأمام هذا الموقف تشعر المدرّسة بالسّعادة لأنّها أصبحت النبراس الذي يهتدي به تلاميذها في ظُلمات الجهل. تقول: " وأسعدتني جدّا... مع مرور الأيام، الوجوه، وجوه تلميذاتي، وهي

تمتلئ بالابتسامة العذبة المرحة... ولسان حالها يردّد دون ملل أو توقّف... في كلّ همسة وفي كلّ حركة: ((إنّك الأمّ، والأخت، والمدرسة... إنّك مصباحنا في طريق لا نعرف عنه شيئا ... قودينا إلى النور.. قودينا إلى النجاح... إلى الحياة لابدّ أنّها جميلة جدّا ... وتحمل كثيرا من السعادة...))" [19]. فقد مثّلت لها وظيفة معلّمة تحدّيا كبيرا على مستويات ثلاثة، " مستوى الذات التي لم تألف الخروج من البيت، ومستوى الأسرة المتردّدة في مباركة هذه المبادرة الجريئة والخطيرة، ومستوى المجتمع المحكوم بعادات مُحقّرة لشأن المرأة والمستدمر الغاشم هذا القمع دفعها للمشاركة في الثورة، فكانت مَدرسة البنات حيّزا لمعركة نسائية ضدّ الجهل، ضدّ السلبية والتهميش، تنفتح على المعركة الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي. ترسم خطّ الأمل للبنات، رغم الأجواء الصّعبة، الملغّمة بالألم والعذاب، وتربية نفس مشبعة بالتحدّي، والطيران نحو الأمل" [20].

إنّ ملامح النضال والتشبّع بالروح الوطنية تبدو جليّة من خلال الأعمال التي كانت تقوم بها الروائية منذ صغرها، فلم يقف دورها النضالي عند حدود القول النظري فقط، بل كان التطبيق هو الذي يوسّع دائرة النضال ويزيدها استعارا، حيث أبدت الروائية شجاعتها ونضالها بوساطة سلاح الكلمة منذ أن كانت تبلغ سنّ السابعة من العمر. تقول في أحد المواقف التي اعترضتها: "ورجعت بي الذاكرة أيام الطفولة... كانت المناسبة حفلا أيضا مكان المناسبة مسجد أيضا، وزمانها قبل عشر سنوات، وقد أراد المعلّمون والمعلّمات والتلاميذ في المدارس الحرّة، أن يحتفلوا بمناسبة وطنية معيّنة وأعدّوا للحفل الأناشيد، والأشعار والمسرحيات... ولكن قوّة كبيرة من الإدارة الاستعمارية منعت هؤلاء الناس من الاحتفال بمناسبتهم السّعيدة ... وكان أن تحدّوا القوة الإدارية، واستمرّوا في إقامة الحفل ... لكن سهرتهم جميعا انتهت في القسم، والشرطة الاستعمارية تحقّق معهم ... وكُنتُ معهم، لأنّني ألقيتُ

نشيدا وطنيّا .. عندما وضعتُ اسمي في قائمة المقبوض عليهم، لم تكن تعلم أنّني أبلغ السّابعة من العمر ... وأنّني أحفظ النشيد، وألقيه دون فهم ... قال معلّمي وقتها: ((يكفي أن يتأثّر به المستمعون..))" [21] . يبدو أنّ سلاح المقاومة– في هذا المقطع السردي– لم يكن بندقية ولا دبّابة، بل كان سلاح الكلمة الذي يُثير حفيظة المواطن المستمع الشغوف بحبّ وطنه، ويثير روح العداء لدى العدوّ، فروح النضال ماثلة عند هذه المُدرّسة منذ الصّغر؛ منذ إلقائها النشيد الوطني في حفل أقامته المدرسة آنذاك، إلاّ أنّ قوة التحدّي والصمود فاقت كلّ شيء، فحفاظها على مبادئ الدّين، وعلى المقوّمات الوطنية جعلاها من بين المقبوض عليهم من طرف القسم والشرطة الاستعمارية.

تبدو شخصية المُدرّسة على قدر عالٍ من الطموح والتفكير الإيجابي إضافة إلى مشاركتها في النضال الثوري مع جيش التحرير الوطني، فكانت تُمارس مهنة التعليم من جهة، والنضال الثوري من جهة أخرى عن طريق العمليات السّرية التي كانت تقوم بها، وهذا ما يؤكّده المقطع السردي الآتي: " دخل ((حمو)) جميلا رشيقا...، واستقبلتُهُ متسائلة: هل رآك أحد؟ كلاّ... والآنسة عائشة؟ لم ترني كانت في منعطف الشارع...عندما أطللت عليه...ماذا قال لك والدك؟ أعطاني هذا لأسلّمه لكِ، ثمّ أخرج دفترا من تحت قميصه الصوفي، كان مُلتصقا بجسمه مباشرة.. وسلّمني إيّاه، وهو يقول: قال لك: يوم الثلاثاء تُسافر الشاحنة... كان دفتر وصولات مختومة بختم القيادة العامّة لجيش التحرير الوطني، كان حبر الختم أخضر نضرا، كمرج أخضر، لا يوجد إلاّ في الجنّة... هكذا كنت أعتقد وقتها، وممضى باسم المسؤول السياسي... على بياض وحتى يملأ وصلا، وصلا، باسم كلّ من يتبرّع بمبالغ للثورة... كان الدفتر وقتها يحمل اسم ((بيانات)) وهو فعلا ((بيانات)). بالعمل

الثوري... وحكما بالفناء والإعدام، لكلّ من يتبنى هذا العمل الثوري، بيانات للثورة، وبيانات للإدارة الاستعمارية... فخرٌ من جهة، وإعدام من جهة أخرى " [22] .

اختارت الروائية الجهاد والانخراط في العمل الثوري النضالي، فهي تقدّم مساعدات لجبهة التحرير الوطني، وتعمل في سريّة تامّة، حيث تقوم بجمع التبرّعات المالية للثورة، وهي بذلك تقدّم المساندة والدعم المادي للثوّار، وللثورة من دون علم أحد، وهي حقّا مجازفة كبرى بالنسبة لامرأة، فحتى الرجال لا يقوون على تحمّل هذه المسؤولية؛ لما تحتاجه من صبر وقوّة تحمّل، إلاّ أنّ الرّوائية تشعر بالسعادة والفخر والاعتزاز؛ لأنّه – في نظرها– من يحمل ذلك الدفتر (دفتر الوصولات) " لا يمكن أن يكون إلاّ مسؤولا.. نَعم مسؤولا إذن ... ومسؤوليتي تتجاوز كلّ ماكنتُ أعرف، من مسؤوليات عضو الجمعية المحلية، مدير، مدرسة، معلمة... جندي استعماري، بل حتى ضابط... تتجاوز كلّ هذه المسؤوليات... إنّها مسؤولية تجاوزت الكلمة، والفعل المعروفين في المحيط الذي أعيشه وأحياه... تجاوزت حتى نفسي.. " [23].

ترى الرّوائية في العمل الثوري والنضال من أجل إنجاحه مسؤولية وواجبا مقدّسا وجب المحافظة عليه وأدائه على أكمل وجه، فالمرأة المثقّفة، هنا، برهنت على أنّها أهلٌ لتحمّل المسؤولية، ومواجهة الصّعاب التي لا يقوى، ربّما، بعض الرّجال على تحمّلها، وكلّ ذلك من أجل استرجاع حرية الوطن المسلوبة منه.

وشاركت الروائية في نضالها الثوري من أجل ردع المستدمر الفرنسي زميلاتها، باية، وعائشة، ولويزة، وصفية، ويبدو كفاح المعلّمات ونضالهنّ واضحا من أجل مواصلة التعليم في المدرسة الحرّة التي كانت تُدرّس اللّغة العربية آنذاك، إلاّ أنّ المستدمر الفرنسي قام بغلق تلك المدرسة، ولكن المعلّمات لم يقفن منهزمات أمام هذا التصرّف الذي يمسّ عناصر الهوية الوطنية بالدرجة الأولى، ومن أهمها اللّغة العربية. تقول الروائية واصفة تصرّفها عندما وجدت باب المدرسة مغلقا: " ... فتشتُ

عن نافذة زجاجها مكسور... وما أكثرها... أمرتُ الطّالبات بالدخول... من النافذة المكسورة، واحدة واحدة، بين دهشتهن إلى أن اكتمل العدد... وقرأنا حصصنا... بين حماس البنات، وضحك المعلمات وشجاعتهن... إنّ كلّ ذلك بالنسبة لهنّ فصل مسل، ومغامرة جميلة...وقالت عائشة، وهي تطلّ على عمّي علي من النافذة المكسورة: عمي علي، لماذا لا تذهب وتخبر الجمعية بما فعلنا؟.." [24] .

نتحسّس من هذا المقطع السردي نبرة التحدي والنضال من أجل الوصول إلى هدف معيّن من طرف المعلّمات، فعلى الرغم من غلق باب المدرسة إلاّ أنّهنّ تحدّين العوائق، وتسلّلن من النوافذ بُغية إيصال الرسالة النبيلة إلى الطّلبة والطّالبات، وهي تعليمهم قواعد اللّغة العربية، وتحفيظهم القرآن الكريم، وتدريسهم تاريخ الجزائر. تقول الروائية: " دورية استكشافية من العسكر دخلت المدرسة، تستطلع ما يحدث فيها... هل هو تحفيظ القرآن فقط؟... إن كان هذا فلا بأس... وأدركنا هذه الحيلة، وأصبحنا ندرس تاريخ الجزائر، دون كتابة، وكذلك المحفوظات الوطنية، وقواعد اللغة، وغيرها من المواد..." [25].

وكُنّ إلى جانب المعلّمة (الروائية) كُلاّ من عائشة، وباية، وصفية. تقول الروائية: " وضمّتنا مدرسة لتعليم العربية واحدة... وأوجدتنا تكوينات حضارية، واجتماعية واحدة، وجاءت الثورة... فإذا بتنا في لظاها، وأوارها، فأصبحنا قطعة من جمرها، عنفا، وحيوية، وأملا..." [26].

أقرّت الروائية اشتراكها هي والمعلّمات جميعا في النضال الثوري، فأصبحت لهنّ نفس التكوينات الحضارية والاجتماعية، واستعرت في نفوسهنّ نار الجهاد والنضال بشتى الطرق من أجل نيل الحرية المسلوبة منهم.

إنّ مشاركة المرأة المثقّفة الرجل في الجهاد والنضال من أجل استرجاع حرية الوطن يبدو حاضرا بقوّة من خلال وصف الروائية صديقتها (صفية) المعلّمة التي

كانت من " ذلك النوع من المناضلات، الذي يتصوّر أنّ على كاهله يقع كلّ شيء... فكانت سواء وهي تدرس في بداية الثورة بالمدرسة، أو بعدها... كانت تبذل كلّ ما في جهدها، لتقوم بكلّ ما يُوكل إليها... من عمليات اجتماعية، أو فدائية... معروفة لدى الجميع... وكأنّها الرمز، لكلّ ما من شأنه إنقاذ، وتعاون، وشهامة، لم يمنعها من ذلك لا مرضها، ولا ظروفها الاجتماعية، ولا سلطة والدها المتطرّفة، في كثير من الأحوال..." [27].

وهذه إشارة من الروائية إلى أنّها لم تكنّ لوحدها تناضل وتكافح أيام كانت مدرّسة بل شاركتها زميلاتها في ذلك العمل النبيل، وكما يقال: في الاتّحاد قوّة وفي التفرّق ضعف، فباتّحاد المعلّمات (الفئة المثقفة في المجتمع) وإصرارهنّ على النضال والانخراط في العمل الثوري سوف يكون النجاح بمشيئة الله تعالى، فقد كانت نفس الروائية متشبّعة بالروح الوطنية، والنضالية لدرجة أنّها تحاول رصد أخبار الثوّار والثورة من خلال جهاز الراديو العجوز كما تسمّيه هي، وتحاول أيضا التقاط الأخبار منه. تقول: "وأيّ كلام ذلك الذي كنّا نحاول أن نلتقطه، كلّ ليلة على أمواج خاصّة، نلتقي فيها بإخواننا الثوّار في الجبال، أو خارج الوطن. فنشعر وكأنّنا فيلق عظيم، كامل العدّة، والسلاح، ينتظر الأمر فقط للهجوم" [28]. فعلاقة الروائية بالثورة وطيدة جدّا منذ الصغر، ذلك ما دفعها لحُبِّ الاستماع إلى إذاعة الثورة. تقول:" لقد كُنتُ أحبّ الاستماع إلى إذاعة الثورة، قبل ذلك اليوم، ولكن علاقتي به هذه الأيام أصبحت أكثر حميمية... بعد أن شاهدتُ أبطال هذه الإذاعة، وأشخاصها على مسرح الأحداث نفسه..." [29]. فإحساس الروائية بالمسؤولية اتّجاه وطنها جعلها تعتبر من جهاز الراديو الذي يأتي بالأخبار عن الثورة وكأنّه " خطاب يوجّه إليّ أنا شخصيا، وإلى مثيلاتي، وأمثالي، وما هو، إلا همزة وصل لتبادل التحية، وتأكيد التواصل الذهني، والروحي... وحتى البدني..." [30]. وقد كان حضور المعلمات

الأخريات إلى جانب الروائية واضحا في مسيرة النضال الثوري. تقول:" اتّقفتُ أنا وصديقاتي بالمدرسة، عائشة، لويزة، باية، وصفية، أن نستمع كلّ ليلة لصوت الجزائر... حتى نستكمل تسجيل النشيد بيتا، بيتا... ثمّ عندما نلتقي نجمع الأبيات، نصحّحها معا لتلقينها للطالبات، نظرا لصعوبة الاستماع لإذاعة الثورة، بما يدخله الاستعمار، من عرقلة، وعالة، حتى لا تصل الإذاعة لإسماع الشّعب..." [31] . لقد أشركت الروائية جميع المعلّمات في الجهاد المقدّس، من خلال سلاح الكلمة والقلم حتى تُسمع صوت الجزائر والثورة المجيدة كلّ ربوع الوطن متّخذة في ذلك من النشيد الوطني الذي تعلّمه للطالبات مدخلا إلى القضية الوطنية التي تسعى جاهدة هي وصديقاتها إلى إنجاحها.

وقد كانت المعلّمة (الروائية) رفقة صديقتها صفية تعملان على مساعدة المجاهدين، وتنظيم العمليات السرية بإحكام حتى لا ينتبه العسكر الفرنسيين لذلك. تقول الروائية لسي إبراهيم أحد الفدائيين:" والآن، لماذا تُصرّ على البقاء؟.. وقد رتبنا ذهابك للحراش، انتظارا لمن يأخذك إلى الجبل... صرّ بأسنانه، وقال: لا بأس... سأذهب... ولكن هيهات أن يفلت الخائن من يدي..." [32] . فالنضال مسؤولية صعبة أُلقيت على عاتق الروائية، وهي ترى فيها العمل المقدّس الذي يتوجّب على صاحبه احترامه وتقديسه. تقول عندما تصلها رسالة من القيادة مغلقة بـ السكوتش " تعرق كفاي، وعمودي الفقري، عند لمسها أول مرة... ويجفّ العرق وأنا أهمّ بفتح الرسالة... ثمّ يقع العكس إلى أن أقرأ محتواها..." [33]. فالروائية كانت تنقاد لأوامر جبهة التحرير الوطني، حيث كان التواصل عن طريق الرسائل التي طالما كانت الروائية ترتعب قبل فتحها، وذلك خوفا من محتواها.

ولا تكتفي المرأة المثقّفة بالنضال بوساطة سلاح العلم فحسب، بل نجدها تشارك هي الأخرى في الكفاح المسلّح من خلال الأعمال التي تقوم بها، وهذا حال

المعلمة عائشة التي أصبحت شريكة أخيها مصطفى في النضال. تقول الروائية:" واستجاب مصطفى للفكرة، وأصبحت عائشة شريكته في كلّ عمليات الفداء، التي يقوم بها سواء في الحيّ أو خارجه... أصبحت مسؤولية إخفاء السلاح المستعمل من مهامها... ونفذت ما طلبته منها... هو أن لا أعرف مخبأ السلاح... في المدرسة... ولا شريط الأحداث التي تشارك في صنعها..." [34] . فنضال المرأة واضح في هذا المقطع، حيث أنّ العمليات تتمّ في سريّة تامّة؛ لأنّه لو سمع الفرنسيون بذلك لقتلوهم جميعا.

وبالتالي تكون الرّوائية قد سخّرت جميع إمكانياتها لتُبْرِز مواقف المُعلمة الثورية في روايتها فغاصت إلى أعماقها الداخلية، وجسّدت ذلك عبر مواقفها وأفكارها وآرائها تجسيدا قويا، وجعلت من المعلّمة بطلة متفانية في أعمالها وثابتة في مواقفها فكرا وسلوكا وخاصّة في العمل الثوري، الذي جعلها تنفخ روح الثورة والنضال في نفوس زملائها وزميلاتها استجابة للواجب المهني والوظيفي معا.

خاتمة:

نخلص من خلال دراسة تجلّيات النضال الثوري للمرأة الجزائرية المثقفة في رواية من يوميات مُدرّسة حرّة لزهور ونيسي إلى النتائج الآتية:

– استطاعت الروائية من خلال روايتها أن تعبّر إلى مدى بعيد عن معاناة المرأة الجزائرية بعامّة، والمثقّفة منها بخاصّة في ظلّ تأزّم الأوضاع في الجزائر، بداية من سرد أحداث عاشتها، وعايشتها إبان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فكان للمرأة المثقّفة حضور واضح في الرواية بفضل نضالها وكفاحها من أجل استرجاع حرية بلادها.

– ركّزت الروائية على الدور الفعّال للمرأة الجزائرية المثقّفة في النضال الثوري، والعمل الفدائي فترة الحرب التحريرية، فقد جمعهم كفريق واحد مشارك في الجهاد،

والكفاح من أجل الاستقلال ونيل الحرية، وهي محاولة جادة لتغيير النظرة الاجتماعية المنتقصة لدور المرأة النضالي في المجتمع، وإخراجها من أسْر التخلّف بأشكاله المختلفة، وتفعيل دورها في المجتمع وردّ الاعتبار لمكانتها، ونبذ الذّهنيات البالية التي لا تقدّم نفعا لها وللمجتمع.

– أثبتت زهور ونيسي في روايتها، هذه، أنّ المرأة الجزائريّة بحكمتها، وذكائها، وحِلمها، وعلمها، صنعت ملامحها وبطولاتها التاريخية حاكمة قوية، وملكة ذكية، وقائدة شجاعة، تشهد لها الأجيال بأنّها رمز التضحية والعطاء والإخلاص.

– جسّدت زهور ونيسي في شخصياتها النسائية الرّوح الواعية والمثقّفة، والثورية، وكشفت عن نضجها، ووعيها، وموقعها في صفوف المقاومة ضدّ الاحتلال، كما منحتها دوراً يتناسب مع وعيها ومؤهّلاتها، بوصفها شخصيات ثورية خاضت التجربة في صفوف الثورة، وعلّمتها عدم الاستسلام لليأس، وتجاوز كل العقبات نحو حياة أفضل.

الهوامش والإحالات

[1] ولدت زهور ونيسي في **13** ديسمبر **1936 م** بمدينة قسنطينة في عائلة محافظة وعريقة في العلم و الإصلاح، متشبعة بالثوابت الوطنية وبالحركة الإصلاحية للشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث درست في أول مدرسة أسّسها و هي جمعية التربية و التعليم للبنات، و قد تحصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق سنة **1954 م**، فانتسبت إلى المدرسة الحرة تلميذة ثم طالبة و ناضلت في صفوف جبهة التحرير الوطني، وفي الحالتين كانت مجاهدة .تحصّلت على شهادتي الليسانس في الأدب وفي الفلسفة ولها دراسة عليا في علم الاجتماع . عملت زهور ونيسي بصفتها أستاذة اكثر من عشرين عاما بدءًا من العمل في المدارس الحرّة، وفي عام 1970م توقّفت عن التدريس لتشغل مهمة مدير تحرير مجلة (الجزائريّة) التي أسّستها؛ وكانت لسان حال الاتّحاد الوطني للنساء الجزائريات... وهي أوّل امرأة جزائرية " يُعهد إليها بمنصب وزاري، وللكاتبة عدّة أعمال أدبية، نذكر منها: الرصيف النائم (قصة)، على الشاطئ الآخر (قصة)، الظلال الممتدة (قصّة)، عجائز القمر (قصّة)، روسيكادا (قصّة)، من يوميات مدرّسة حرّة (رواية)، لونجة والغول (رواية)، جسر للبوح وآخر للحنين (رواية)

[2] يمينة عجناك، الكتابة النسائية في الجزائر وإشكالياتها قضية المرأة في كتابات زهور ونيسي نموذجا، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر ، العدد9 (2010)، ص:.34

[3] المرجع نفسه، ص:.28

[4] فيروز بوخالفة، لغة السرد النسوي في أدب زهور ونيسي، مذكرة مقدمة لنيل الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2012–2013، ص:24

[5] سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية العربية، دار التنوير، الجزائر، ط1(2018)، ص:.103

[6] نور الهدى حلاب، التجريب الروائي في الرواية النسوية الجزائرية، حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، المجلد5، العدد11، ماي2018، ص:.171

[7] فيروز بوخالفة، لغة السرد النسوي في أدب زهور ونيسي ، ص:.24

[8] المرجع نفسه، ص:25

9 سعيدة بن بوزة، صورة المرأة في الرواية النسائية الجزائرية، مجلة المعنى، المركز الجامعي خنشلة، الجزائر،2008، ص :246.

[10] محمد بوعزارة، المرأة الجزائرية من النضال المسلح إلى الممارسة السياسية– محاضرة– ، الندوة الإقليمية حول مشاركة المرأة في الحياة السياسية مركز الدراسات المتوسطية والدولية، تونس 14 و 15 أفريل 2017، على الرابط الالكتروني:
http://elhiwardz.com/contributions/82160/

[11] أحمد دوغمان، في الأدب الجزائري الحديث، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، (د، ط)(1996)، ص:.108

[12] المرجع نفسه، ص:.119

[13] المرجع نفسه، ص:.91

[14] زهور ونيسي، من يوميات مُدرّسة حرّة، موفم للنشر، الجزائر، (د، ط) 2007، ص:.18

[15] فيروز بوخالفة، لغة السرد النسوي في أدب زهور ونيسي، ص:173، نقلا عن: أنيسة بركات درّار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1985)، ص:.13

[16] المرجع السابق، ص:.115

[17] المصدر السابق، ص:.36

[18] المصدر نفسه، ص:.41

[19] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[20] ليلى محمد بلخير، نساء من بلادي: زهور ونيسي وعبق النضال، مارس2017، مقال على الرابط الالكتروني: http://elhiwardz.com/contributions/77662/

[21] المصدر السابق، ص:52.

[22] المصدر نفسه، ص:64، 65، 66، 67.

[23] المصدر نفسه، ص:67، .68

[24] المصدر نفسه، ص:93، .94

[25] المصدر نفسه ، ص:94، .95

[26] المصدر نفسه، ص:.116

[27] المصدر نفسه، ص:116، .117

[28] المصدر نفسه، ص:.117

[29] المصدر نفسه، ص:.118

[30] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[31] المصدر نفسه، ص:119، .120

[32] المصدر نفسه، ص:.130

[33] المصدر نفسه، ص:.138

[34] المصدر نفسه، ص:160.